الشدياق رائد الحريات في فكرنا الحديث

جورج هارون

يعود الشدياق الى مسرح الدراسة الادبية ، فيتبلور على كرّ الايام تراث ذلك الوجه الاسطوري وتتضح معالمه وقيمه . وقد ثبت ان الاثر الذي خلّفه ليس لغوياً فحسب ،ولا ادبياً فحسب ، بل هو في الدرجة الاولى اثر فكري خالص ، لحمته النقد الاجتماعي وسداه التمرد على الاوضاع في مختلف الحقول . والتيار التحرري في جملة المبادىء التي اعتنقها الشدياق وجاهد في سبيلها ، ولكنه بقي مطموراً ومغفلا اذ لم يقيض له من يجلوه ويبرزه . فكيف عالج الشدياق هذا التيار ؟

هناك افكار تحررية جاءتنا مع غزوة بونابرت لمصر ، والتاريخ يذكّرنا بمن كان بين رجالها من العلماء والمفكرين الملمين باللغات والعلوم والفنون ، الذين حملوا معهم مبادىء الثورة الفرنسية القائمة على الحرية والاخاء والمساواة. غير اننا لا نعرف آثاراً فكرية مكتوبة عن الحملة الفرنسية،ما خلا البيان البونابرتي الشهير الذي وجّهه للشعب المصري سنة ١٧٩٨، وقد تضمن عدداً من المبادىء التي ثارت لاجلها فرنسا ؛ ومما يقوله : « من الجمهور

الفرنساوي المبني على اساس الحرية ... ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضايل والعلوم فقط .وبين المماليك ما العقل والفضل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم يتملكون وحدهم كما يحلو لهم من حياة الدنيا... بعونه تعالى من اليوم فصاعداً لايستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ... » ويقول الامير حيدر الشهابي ، المؤرخ اللبناني الذي ننقل هذا البيان عن كتابه « في الحملة الفرنسية الى مصر » ، ان اعيان مصر استغربوا هذا «الخطاب الهول والامر المجهول» وهم يسمعونه للمرة الاولى في حياتهم.

وهناك افكار ثورية أتتنا عن طريق البعوث المصرية الى الغرب ، التي اوفدها محمد علي ثم الخديوي اسماعيل ، لترجع بالتيارات الفكرية الجديدة وفي طليعتها التيار التحرري الذي حمل لواءه احد ابرز الاعضاء الموفدين وهو رفعت رفاعة الطهطاوي . لكن تأثير هـذه البعوث المصرية لم يتجـاوز في مجمله بيئة محمد علي والخديوي اسماعيل ، بل بطانة هذين الحاكمين ، ما عدا رفعت الطهطاوي الذي ترك كتاب «تخليص الابريز في تلخيص باريز» وكان له ابرز الاثر في النهضة المصرية الحديثة ، وفي فكر الشدياق نفسه .

الى جانب حملة نابليون والبعثات المصرية الثقافية ظهر في عصر الشدياق اثران هامان باللغة العربية ، تربطهما بالثورة الفرنسية اوثق الروابط : الاول : كتاب « محاكمة مدحت باشا » لسان حال الاحرار المناوئين لعبد الحميد ، وهو يذخر بقيم ثورة فرنسا كالعـدل والمساواة والحرية والشعب والحقوق ، ويعود في الكثير من آرائه للمفكر الفرنسي مونتسكيو. والثاني : هو تاريخ الامير حيدر الشهابي ويتضمن وصفـاً للحملة النابليونية على مصر ومعلومات مبسطة عن ثورة فرنسا . اما كتاب « محاكمة مدحت باشا » فقد كان له اثره في نهضة الشباب التركي وفي انتفاضة الاحرار الثائرين على سلطة عبد الحميد ، وقد ترك اعمق الاثر في مفكرينا عامة والأدباء التحرريين خاصة . واما تاريخ الامير حيدر فلا يشتمّ منه تجاوب صريح مع مبادىء ثورة الفرنسيين، لكن مجرد تفصيله لانتفاضة الشعب الفرنسي ضد سالبي حقوقه مدعاة للاثارة والتحريض ، وعامل من عوامل الوعي القومي والحقوقي لدى الجماعات والافراد. ومعلوم ان الامير حيدر عهد الى الشدياق بتنسيق وتصحيح اوراقه، فلا يستبعد وجود الكتاب المذكور من بينها .

قد لا يفوت الشدياق بجمل المصادر المذكورة ، وذلك بحكم سعة اطلاعه وحرفـة النساخة والترجمة والتصنيف والتصحيح التي احترفها في مكاتب الاستانة ومالطة وسواها ،

بل قد تكون هي وغيرها مهدت له الجو الثوري الملائم؛ الا انه لا تربطه بها رابطة في اكثر القضايا التحررية التي اثارها ، تلك القضايا التي استلهمها من مصادر اوثق قرابة بالثورة الفرنسية ، كما استلهمها من واقع عصره وبيئته الشرقية ، ومن تجربته الخاصة .

واهم الموضوعات الثورية التي عالجها المساواة العنصرية ،والتحرر النسوي ،والتساوي في توزيع وظائف الدولة ، والعدالة في توزيع الثروة بين الشعوب ، والدعوة الى التربيـــة الانسانية السموح ، والحرية الدينية .

يرى الشدياق بالاستنتاج مع الكثيرين ، خاصة الذين خالطوا الفرنج منهـــم ، ان من مستلزمات التمدن ان يكون للانسان حرية في كل شيء : « فلا يكون تمدن حقيقي من دون حرية تامة » . ويعالج الحرية في شتى مظاهرها : فهو يتعرض للحرية العرقيـــة ، ويلمح في « الجوائب » باستنكار الى التميز العنصري القائم في امريكا والى مساوئه وآفاته، ويغمز من قناة استعباد العبيد والهنود الامريكيين ، وقد كان شديد الوطأة آنـــذاك . ونقده للتميز العنصري يرد للمرة الاولى في اللغة العربية وعند الكتّاب الشرقيين ، بل نكاد لا نعثر على شيء من هذا في كل ما كتبه مفكرونا في القرن الماضي .

ويتعرض ايضاً للحرية النسوية ، ويستهدف من تحرير المرأة اهدافاً ثلاثة : الاول : تحرير المرأة من الرق ـــ فيحارب هذه التجارة وعاصمتها اذذاك الاستانة ، داعياً الى ضرورة استئصال هذا الشر باي ثمن كان. والهدف الثاني : تحرير المرأة من الجهل ـ فهو يحضّ على تعليمها وتدريسها ، وبصورة خاصة القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع كالخياطة والتطريز ، ويشدّد على عنصر المطالعة لاسيما الاخلاقية والادبية منها وما يمكن ان يوفره للفتاة من فائدة خلقية ولغوية: فالغاية هي انشاء نسوة فاضلات، وهذا لا يتحقق الا بالعلم . والهدف الثالث : اسهام المرأة مع الرجل في حمـل التبعات واقحامهـا ميدان العمل ـ فلما كانت الحرية في رأيه ملازمة للتمدن ، والتمدن عند الافرنج مشترك بـين الرجال والنساء ، فان المرأة عندهم تسهم الى جانب الرجل في الاعمال والمساعي ، حيث النساء يبعن ويشترين ويتعاطين الفنون والصنائع ويكددن في امور المعاش، بل يطمحن الى مشاركة الرجل في السياسة وفي تسنم المناصب ، بينما يـــلاحظ الشدياق ان التمدن مقصور عندنا على الرجال دون النساء .

يتبين من هذا ان الشدياق اراد للمرأة الشرقية نهضة شاملة في ميادين التعليم والخلق والعمل والمسؤوليات كافة ، من منزلية ومهنية وعائلية وسياسية . فهو ، من هذا القبيل ، اول صوت شرقي نادى بالنهضة النسوية بهذا الشمول ، وهـذا امر جريء ومستغرب في حينه . وهو ، في موضوع الدعوة الى تعليم المرأة ، سابـق ان لم يكن معاصراً لدعـوة المعلم بطرس البستاني نفسه الى التثقيف النسوي .

بالاضافة الى التحرر النسوي والعنصري تظهر عند الشدياق نزعة اخرى مستمدة من مبادىء الثورة الفرنسية ، الا وهي الرغبة في توزيع مناصب الدولة بالمساواة ، والتساوي في حمل تبعات الادارة والحكم. فيقول في مقال «في اصول السياسة وغيرها» بان الاصل في وظائف الدولة « ان تكون عامة يشترك فيها كل من كان جديراً بها من رعاياها ، فـلا تقتصر منافع الدولة على فئة من اخصاء المناصب والوظائف فيها، فيرشحون مثلا اولادهم للجدارة بها بما لا يقدر غيرهم على مجاراتهم فيه ، فتصير هذه المنافع موروثة لهم . وهذه الطريقة شائعة عند جميع الدول . وهي من وجه عدل ومن وجه ظلم : فوجه كونها عدلا ان وظائف الدولة لا ينبغي تخويلها الا لمن كان مستحقاً لها ، ووجه كونها ظلما قصرها على اشخاص معلومين ، فـاذا تدارك للفرع الثاني اعني تربية من لهم مزايا خلقية حصل التساوي في احراز تلك المنافع » . وكان مفكرو الثورة الفرنسية قـد نادوا ، من قبل ، بالتساوي في حقل الحقوق ومضمار الواجبات تجاه القانون .

بل تظهر ، احياناً ، عند الشدياق بعض النزعات الاشتراكية لجهة التمايز الطبقي وتحرير الطبقة العاملة من الفقر والاستعمار ؛ فيهاجم الاقطاعية في توزيع الثروة على افراد الامة ، محاولا الانتصاف للفلاح والانتصار للفئة الكادحة . يقول . « فان دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة انه يشقى ويكدّ النهـار كله ولا حظّ له في الليل سوى اغمـاض عينيه . فكيف يزين هذا الصنف من الناس الدنيا ويبهجونها ويعمرونها وهم عطل عنها ومحدودون منها ؟ والمترفون فيها لا يحسنون عمل شيء وربما لم يكونوا ايضاً يحسنون الكلام . واذا كان الناس عباد الله في ارضه على اختلاف احوالهم ومراتبهم هم كالجسم الواحد باختلاف ما فيه من الاعضاء الجليلة والحقيرة ، فلم لا يجري العدل بينهم كما يجري بين الاعضاء ؟ فان الانسان اذا اكل شيئاً او لبس شيئاً فانمـا يفعل ذلك لاصلاح الجسم كله . ام يزعم

المثرون اذا وسّعوا على هؤلاء الضناك الصعاليك ، ونفّسوا عنهم الكرب الذي يكابدونه من جهة المعيشة ومن عدم قدرتهم على تربية اولادهم ، انهم يحملونهم على اهمال شغلهم وعلى تركهم الارض بوراً فتتعطل وتمحل فيهلكون جوعاً ؟ ام يحسبون الله تعالى انما خلق الفقراء لخدمتهم فقط ؟ لعمري ان حاجة الغني الى الفقير اشد من حاجة الفقير الى الغني . ام يأنفون من النظر من مقامهم السامي الرفيع الى ذوي الصنعة والحول خشية ان يسري اليهم من بؤسهم ما يسوءهم ؟ ليت شعري هل جرب الاغنياء حيناً من الدهر ان يسعدوا الشقي بمالهم وينعشوه برفدهم ، ثم وجدوه مقابلا نعمتهم عليه بالكفران والبطالة وباهمال ما فرض عليه من قبل الله والطبيعة ؟ واذا كانوا يخشون منه الفساد لكسله وتعطله فخوفهم من فساده لفقره ومن كراهيته اياهم اولى ، لان الشقاوة ادعى الى الفساد من السعادة » .

واثر الثورة الفرنسية بيّن ظاهر في هذه الفقرات ؛ وكثيراً ما يستشهد الشدياق في كتابي « كشف المخبا » و « الساق على الساق » بفولتير وباقواله وآرائه ، سيما المبثوثة منها في « القاموس الفلسفي » ،وقد أخذ بما في هذا «القاموس» من نقد ديني واجتماعي .

الا ان اخطر ما تتصف به شخصية الشدياق التحررية انما هو بدون ريب الدعوة الملحاح الى التسامح الديني والقضاء على التعصب المذهبي . كان موقف رجال الدين المعادي من اخيه اسعد (الذي بدّل مذهبه ، وادى به هذا الى الموت) نقطة الانطلاق ، كما يبدو ، لنظرة شدياقية شاملة الى الدين ، فاوحيت له آراء لم تعهد من قبل .

يمكن تقسيم الفكر الديني عند الشدياق الى قسمين : اولهما الاجتهاد الذي حاول به تأييد الحرية الدينية . وهو يسوقه في معرض ثورته على رجال الدين لموقفهم من شقيقه ، محاولا دحض نظرهم الخاطىء الى حرية العبادة . فبعد ان يسائلهم، مستنكراً محتجاً ، عن سوء معاملتهم لاخيه ، يأخذ في ايراد الادلة القاطعة على بطلان عملهم ، مستقياً لها من التاريخ الديني والسياسي المعاصر ، ثم من التجارب نفسها . فهو يستشهد بتاريخ الاديان، فيذكّرنا بان مؤسسيها اقرّوا ذوي السيادة على سيادتهم وامرتهم،فلم يكن دأبهم الا الحضّ على مكارم الاخلاق والامر بالبرّ والدعة والسلم والاناة والحلم ، فهي المراد في كل دين عرفه الناس . كما ان رؤساء الدين في التاريخ لم يأمروا، لا هم ولا اتباعهم ، بسجن من

يخالف امرهم ، وانما كانوا يعتزلونهم فقط . ولو نشأ الدين على القساوة الوحشية لما آمن احد ، لانه لا يُقبل انسان على دين ما لم يرَ فيه خيراً مما كان عليه . ويتعرض لانبياء التوراة ، ويصرح بانه لا يمكن تقليدهم في اعمالهم وبان ما يجوز لهم لا يجوز لسواهم ، خاصة اذا اعتبرنا الفارق التاريخي والظرفي . ثم يلجأ الى الاسلام ، فيذكر بانه « لو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » وبانه « لا اكراه في الدين » ، وبان الاسلام لم يوجب على اهل الذمة سوى الجزية ، وهو امر هين والدول كافة توجبها على رعيتها ؛ ولا يغفل ان يذكر ان الخلفاء استخدموا في الزمن القديم النصارى واليهود .

والدليل النفسي الذي يقدمه الشدياق يستمده من التجربة والاختبار ، اذ يؤكد بان الاضطهاد الديني والاجبار على امر ليس من الخير في شيء : فهو لا يزيد المضطهد الا كلفاً بما اضطهدلاجله، ولا سيا اذا علم من نفسه انه على حق وان خصمه القاهر له على ضلال.

ويمكن حصر القسم الثاني لفكر الشدياق الديني بالحملة المعروفة على رجال الدين وعلى المتعصبين من اتباع الاديان وما جرّ تعصبهم من نتائج وخيمة. فينعت السلطات الروحية باسوأ النعوت ، ناسباً اليها كل فرية ، محاولا النيل من كرامتها ومن مركزها السامي . ويسخر حتى ممن يتجادلون باسم الدين فيرميهم بضيق الافق وفساد التفكير ، سيما وان موضوع جدالهم لا يخضع لاي مقياس من المقاييس البشرية . ويدعو رجال الدين الى الريث والمهلة في معاملة مخالفيهم في الرأي والعقيدة ، لئلا يبتعدوا عن جوهر الدين القائم « على الالفة بين جميع الناس والمحبة والمساعدة وحسن اليقين بالله تعالى » . ويحمل من ثم على الحروب الدينية التي حصلت في التاريخ وسببت سفك دماء عباد الله لغير طائل ، ولكنه ينسب الشرور التي ارتكبت حتى الآن ،باسم الدين ، تارة الى سفلة العامة ، وتارة الى الرؤساء الروحيين وحبهم الرئاسة الذي يدفعهم الى تحريض الجهلة من الرعية على خلاف مراد الله وخلاف مراد الدول ، كما ينسبها تارة اخرى الى فقدان التمدن لدى عامة الشعب واميته وجهاله . ومن هنا كان الدين عنده مرادفا للتمدن ،والتمدن مرادفاً للحرية . وما حقيقة التمدن في نظره سوى « ان يكون الناس متعاونين على امورهم المعاشية من دون التفات الى مباينتهم في تدينهم وتعبدهم » . فالطريق الى الاخاء الديني يكون اذاً بتهذيب الاخلاق وبلوغ درجة التمدن القصوى .

هذه الازمة الدينية التي عاناها الشدياق افادته ، كما يرى محمد احمد خلف ، من جملة نواحي : فقد جعلته يلتفت الى الصراع الذي يقوم دائماً بين الدين والعقل ، وتنشأ عنه

المذاهب الدينية ؛ كما جعلته ينظر الى النزاع الذي يحصل بين الدين و بين الدولة ، وينتهي بان تصبح الدولة مدنية ؛ وجعلته ايضاً يجني فائدة كبرى لغوية وصرفية ، وتتعلق هذه بالتصحيحات والتصويبات والشروح المستفيضة للالفاظ الدينية ، خاصة المتعلقة منها بالطقوس وبالعادات والتقاليد ، كما تتعلق بعدم وقوفه عند حد قدسية اللغة وكونها من اختراع الآلهة ، وايمانه بالثقافة الغربية ، والايمان اسوةً بعلماء الغرب بان اللغة بنت الحياة.

ومهما يكن من امر فان الشدياق كان اول داعٍ في الشرق الى الحرية الدينية والتسامح المذهبي . وهو بحقّ رسول حرية العقيدة والفكر ، الى جانب المعلم بطرس البستاني ؛ وقد سار على منواله في نقد الاديان شبلي الشميّل، ولكن على اساس فلسفي وعقائدي ، فنال من الروحيين عامة ومن المذاهب خاصة . كما ثار على التعصب الديني فرح انطون ، ومن بعده الريحاني وجبران. فثمة اتجاه فكري تجاه الاديان ورجالها ، انطلق من مجلة «الجوائب» ومن « الساق على الساق » ، فاخترق القرن الماضي في هذه المنطقة ولما يقف ، وان تنوعت النظرة فيه .

هذه الميزات التي ميزت التيار التحرري الشدياقي في ميادين المرأة والطبقة والعرق والدين ، بلغت اشدها على الصعيد التربوي .

فقد نادى الشدياق في معرض آرائه التربوية ، بوجوب اغراء الصبي في صغره بالحلم والصبر والعفو والمجاملة ، التي تؤثر فيه اكثر من الجلد والركل والتأديب ، وذلك في عهد كانت فيه العقوبات المدرسية تجرح جسم الطفل وتلحق الاذى بصحته وبحياته . فانتصر مفكرنا للرفق واللين ، وحرر التربية من الشدة والقساوة ، ورفع الحيف النازل بالطفل من جراء الاساليب اللاانسانية في تعذيبه وتأنيبه .كما انه نادى ، في وصاياه التربوية ، بمبادىء ثورية تحررية احدثت دهشة واستغراباً : فهو يقول بان على المربين ان ينفخوا في صدر الطفل ان الاديان جميعها من اصل واحد ، والمنتمين اليها اخوان وان اختلفت مذاهبهم ، وان عليهم ان يعلّموا الولد انه لا يسوغ له معاداة احدبسبب مخالفته في السحنة او اللغة ، وان عليهم ان يدربوا الطفل على رحابة الصدر ، فلا يضيق بمن يخالفه في المعتقد او الرأي، ولا ينتقم من احد بسبب نميمة او لمجرد وشاية . على ان لا يتفرد بتطبيق هذه المبادىء المعلمون فحسب ، بل يستخدمها المربون جميعهم والوعاظ والخطباء .

هذه التوصيات التربوية الانسانية كانت ثورة في حينها على المدارس الطائفية الضيقة والمؤسسات التعليمية التقليدية في لبنان وسائر انحاء الشرق ، ولم يُسبق اليهـا في عصورنا الحديثة ولا في تراثنا الحديث . بيد انه لا بد من الوقوف على الينابيع التي استقى منهـا فارس الشدياق روح آرائه التقدمية في ميادين التربيـة والمرأة والدولة والحريات على اختلافها . فبالاضافة الى بذور التيار التحرري النابع من البعثات المصرية الى اوربا وسواها ، والتي اطلع عليها الشدياق ولا ريب ، ثمة مصادر ثلاثة غذّت المبادىء التي دعا اليها وكافح في سبيلها .

اولها : حرفته واشتغاله بالصحافة . فحرفة النساخة وانقطاع الشدياق الى اعمال التأليف والتصنيف والتصحيح والترجمة لدى المرسلين الامريكيين في جزيرة مالطة وفي دار الترجمة السلطانية ثم في دار الطباعة السلطانية ، وفرت له الوقوف على مؤلفات كثيرة وتيارات عديدة ، سيما وانه لم يصدر كتاب في الجزيرة لم يطلع عليه ولم يعمل فيه . امـا اشتغاله بالصحافة فلا ينكر ما يسر له من سعة الاطلاع والمعرفة في مختلف الموضوعات وفروع العلم ، و « الجوائب » التي اسسها كانت المجلة الاولى ، في عصرها ، في العالمـين الشرقي والاسلامي ، ولها مراسلون ومحررون في الاقطار المختلفة ، وكان الساسة والمعلقون الدوليون يعتمدون على انبائها وآرائها وانتقاداتها ، فكانت ملتقى الافكار ومحور النشاط العقلي .

ثاني هذه المصادر : الاتصال الشخصي الذي ترك في نفس الشدياق تأثيرات عميقة على الصعيد التحرري ، واهمها على الارجح تقربه من رفاعة الطهطاوي في مصر ، الذي افسح له صدر « الوقائع المصرية » . ولا ننس مكوثه في باريس واجتماعه فيها بالعلماء والادباء الفرنسيين ، وكذلك تنقلاته بين لندن وباريس .

والمصدر الثالث لتحررية الشدياق ، هو هذا الواقع الاجتماعي والسياسي الشاذ الذي كان سائداً في عصره وفي بيئته ، ولا سيما في اوائل القرن وأواسطه . اما البيئة فليس ادل على روحها الاقطاعية ورجعيتها وعنفها من تلك الحالة السيئة المؤسفة التي وصل اليها شقيق فارس الشدياق بسبب تبديله لمذهبه . اما الجيل فليس ادلّ على ما اكتنفه من ظلم وجور من تلك الصلاة التي ارسلها خليل الكافر ، احد ابطال « الارواح المتمردة » لجبران خليل جبران ، والتي ترسم لنا ، كما يقول مارون عبود ، صورة صادقة عن ذلك الزمن الاقطاعي الرهيب :

« من اعماق هذه الاعماق نناديك ، ايتها الحرية ، فاسمعينا .

من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك ، فانظرينا .

امام عرشك الرهيب نقف الآن، ناشرين على اجسادنا اثواب آبائنا ببقاياهم ،حاملين السيوف التي اغمدت باكبادهم ، ساحبين القيود التي ابادت اقدامهم ، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من اوجاع قلوبهم .

فاصغي الينا ، ايتها الحرية ، واسمعينا .

في زوايا الاكواخ القائمة في ظل الفقر والهوان ، تقرع امامك الصدور ؛ وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة ، تطرح لديك القلوب ،

وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحنّ اليك الارواح .

فانظري ، ايتها الحرية ، وارحمينا .

منذ البدء وظلام الليل يخيّم على ارواحنا، فمتى يجيء الفجر ؟ من الحبوس الى الحبوس تنتقل اجسادنا ، والاجيال تمرّ بنا ساخرة ، فالى متى نحتمل سخرية الاجيال ؟

ومن القيود الى القيود تسير ركابنا، فلا القيود تفنى ولا نحن ننقرض . فالى متى نحيا؟»

ولا شك ان الينبوع الاهمّ الذي غذّى شخصية الشدياق وشجع مناداته بالحريات وفي طليعتها حريـــةالمعتقد ، كان موقف الاكليروس العدائي من اخيه اسعد ، الموقف الذي ادى به الى الموت، وقدولّد عقدة في نفس الشدياق من حيث نظرته الى رجال الدين وما يمثلونه ، فراح في غمرة من الغضب والالم والكراهية للسلطات الروحيـــة يفتح النار على مضطهديه مجادلا مقارعاً ومفندا حججهم ونظرتهم الى حرية الرأي ، مكيلا لهم التهم الشنيعة ، رامياً تاريخهم القديم والمعاصر ، ناسباً له المساوىء والمخازي.

هذه الصيحات الثورية والآراء التحررية ، بما رافقها من جرأة وقوة وعنف بلغت حد المجازفة ، ليس ينكر ما يكلف الاقدام عليها في عصر الشدياق ، والعهد عهد كمّ الافواه وضرب الاعناق، وقد خنق كل رأي مخالف في المهد وقضي على كل مقاومة وشلّت كل حركة فكرية واجتماعية .

ويكفي ان الشدياق اعلن ثورته الفكرية هذه وقام بها قبل ان يسطع نجم جمال الدين الافغاني ويزغ نور اديب اسحق وشبلي الشميّل وفرح انطون وسائر مفكري القرن الغابر التحرريين ؛ وانه بينما كان اقرانه يعودون بالقرن الى الوراء ، كان هو يدفع به الى الامام ويتجاوزه .